

الفصل الرابع السودان الناس والأرض

هذه الأرض الشاسعة التي تمتد آلاف الأميال من الشمال إلى الجنوب ومثلها من الشرق إلى الغرب ، والتي حباها الله تعالى ، بالإضافة الى اتساع رقعتها ، ثروات مائية تفيض وتجري في ربوعها . فهناك النيل الأزرق ، ونهر عطبرة ، والدندر ، والرهد . كل ذلك يجري في هذه البلاد بقدرة الخالق سبحانه وتعالى ليفيض بالخير على أمته التي استوطنت في تلك الرقعة من الأرض .

ولهذا الاتساع أثره من حيث المناخ ، ففي شمال البلاد تنعدم الأمطار أو تقل . وتمتد الصحراء واسعة مدى البصر لايجدها حد ، ولا يعترضها معترض ، حتى تدخل في غياهب إفريقيا والصحراء الكبرى من ناحية الغرب ، وتلاصق البحر الأحمر من الشرق . فإذا سرت جنوبا من حدود البلاد الشمالية المتاخمة لمصر في فصل الخريف الذي يبدأ في يوليو من كل سنة ، وينتهي بعد شهرين

من ذلك ، نجد أن الأمطار تصب في هذه الفترة ما بين قليلة في الشمال إلى فوق المتوسط في وسط السودان . وهنا تشعر بقدرة الخالق جل وعلا الذى يحيى الأرض بعد موتها . وتجدد الأرض التى كانت جافة المسام ، معروقة الأعشاب ، ملتهبة الظهر قد تبدلت شيئا آخر ما بين عشية وضحاها . وإنك إذا سرت فيها جافة فى صباحك ، وعدت إليها عند الأصيل وهطل عليها الغيث وجدتها قد صبغت ظهرها بخضرة جديدة منبثقة كانبثاق الحياة ، ووجدت الأرض القاحلة من كل شىء قد تدثرت بشتى أنواع البرود ، وكمنت بالسحب من كل لون وحجم . ومع نزول الغيث واخضرار الأرض يلجأ الناس إلى زراعة ما يقتاتون به ، وما يتدثرون . ويكثر الضرع ، وتفرح الدواب ، وتنشط القلوب .

هذا الإقليم الأوسط هو الذى تكثر فيه الزراعة المطرية بالإضافة إلى الزراعة المروية ربا إنسانيا . ففى هذا الإقليم توجد كبرى المشاريع الزراعية مثل مشروع الجزيرة ذى المليون فدان ومشروع الجنيد ذى المليون فدان أيضا ومشروع الرهد وغير ذلك من المشاريع التى تزرع القطن والذرة والقمح بشكل رئيسي وغير ذلك من المنتوجات الزراعية . أما تلك الأراضي التى ترويهها الأمطار فإن حصادها هو السمسم والفول السودانى والذرة وكلها حاصلات زراعية تسهم فى إثراء السودان .

ولا ينسى السوداني منذ القدم أن يزرع ما يحتاج إليه من بقول و خضروات وفاكهة حتى يؤمن للضيف ولنفسه مئونه حياته لعام كامل أو ينيف .

وفى جنوبى البلاد تزداد كميات الأمطار التى ينزلها الله سبحانه وتعالى ، وتتغير البسيطة من أعشاب وشجيرات إلى أشجار غزيره وكثيفة عميقة من العشب فتصبح غابات ثقل وتزداد كثافتها بين كل جهة وأخرى .

هكذا نرى السودان ، فهو صحراء فى شماله ، معشوشب مخضر فى بعض شهور السنة فى وسطه ، وتغلب الغابات على جنوبه . وكذلك نجد سكانه ، فهم قلة فى الشمال تزرع على جوانب النيل وضافه منذ أن حلت أقدامهم بتلك المنطقة ، ومنذ أن فجر التاريخ مدينته . فهم من أبناء ممالك النوبة المتعاقبة التى عاصرت الفراعنة وصرعتهم حيناً من الدهر ، وهى التى حمت أرضها من الفرس ، وهى التى دافعت عن ترابها ضد الرومان ، وهى التى أتخنت العرب والمسلمين جراحاً ، وفقأت عيونهم بسهامها فى الإسلام ، وهى التى رحبت بالعيش جنباً إلى جنب مع القبائل العربية النازحة من نير الممالك والأتراك فى مصر ، ومن شظف العيش فى الجزيرة العربية ، ورحبت بهم ، وقاسمتهم السراء والضراء .

وشرقى ممالك النوبة تقع ممالك البجة الخمس التى زارها ابن حوقل وغيره . وهم أيضاً بشكيمتهم القوية وشجاعتهم النادرة ، واستماتتهم فى القتال شاركوا ممالك النوبة فى الدفاع عن أراضيهم وخاصة مناجم الذهب فى وادى العلاقى ضد الفراعنة وكل من دخل مصر من الغزاة الفاتحين حتى جاءهم العرب ، فقبلوا قبائلهم ، وتزاوجوا معهم ، واختلطوا بهم ، واعتنقوا الدين الإسلامى ليصبحوا أمة عربية مسلمة .

وفى الوسط حيث المراعى الخصبة تدفق العرب أيضاً بأنعامهم وإبلهم وأغنامهم ، وضأنهم فوجدوا الحضرة والخصب الذى لم يكن لهم مثله فى وطنهم ، وانتشروا فى ذلك الفضاء الفسيح من شرقى السودان المتاخم لحدود الحبشة إلى غربه حيث يجاور تشاد . وفى هذا الخصب كثرت أنعامهم وازداد نسلهم ، واختلطوا بأهل البلاد حتى تغيرت سختهم ، ولكنهم احتفظوا بلسانهم العربى ، وخلقهم الأدبى ودينهم السمح ، ولم تكن تحدهم

قوانين ، أوتربطهم أوامر . ولكن كان وازعهم الديني ، ومثلهم الأخلاقية ،
وشمهم القبلية ، وحفاظهم على حسن الأحداث ، والذكر الطيب ، هي
التي حفظت لهم دينهم ونسبهم وحسبهم وخلقهم .
لقد اخضرت بشرتهم كما قال القرشي حين أنشد :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب (١)
وما زال السودانيون يسمون لون البشرة الداكن بالخضرة (وهي في نظرهم
أصل الحسب والعروبة لا تلك المشوبة بالحمرة الناتجة عن الاتصال بالدم
الرومي أو الفارسي أو التركي . ومع توالي الأجيال والقرون حفظ
السودانيون أنسابهم التي ورثوها عن آبائهم واعتزوا بأجدادهم وقبائلهم
الأصلية التي هاجرت الى السودان وبقيت فيه حتى الان . وانتشرت
سراياهم وطلائعهم حتى تاحت الغابات^{٦٥} .

وفي ذلك الإقليم الذي غطته الغابات نجد قبائل السود التي يعتقد بعض
علماء الأجناس أنها قبائل قوقازية انحدرت من منطقة القوقاز في التاريخ
السحيق حتى استقرت في مجاهل إفريقيا. ولقبائل السودان الجنوبي لهجاتها
المختلفة التي تتكلم بها كل قبيلة على حدة ، ولكن عند ما يتحدث أحد أبناء
الجنوب مع آخر من قبيلة مختلفة فإنهما يتحدثان باللغة العربية الدارجة التي تم
تطويعها لمقتضيات ظروف الحياة في جنوب السودان. ويشترك أبناء السودان
الجنوبي مع إخوانهم في الشمال في بعض السمات الخلقية التي تظهر

٧ لقاتل هو الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو أحد
شعراء بني هاشم المشهورين وفصحائهم المعدودين : محمد صالح ضرار تاريخ البحر الأحمر .

بوضوح الانتماء إلى الوطن الواحد ، فهم كساتر أبناء الشمال يتحلون بشجاعة نادرة ، وجسارة مميّزه ، وأنفة وعزة نفس ، كتلك التي يتخلق بها أبناء شمال البلاد . وهذا ما جعلهم يستमितون هم والشماليون في معاركهم ضد من حاول اغتصاب البلاد من مستعمرين وغازين . وكلاهما يجب الانخراط في الجندية للاستبسال في ميادينها .

كذلك نجد أن كلا من أبناء الشمال والجنوب والوسط يعيش في بيئة قبلية . وهم بجانب الاعتزاز بالانتماء القبلي يعتزون أكثر وأكثر بالانتماء القومي . فمن جهة تكسيهم القبلية روح الترابط المحلي ، وتدثرهم القومية السودانية بتيارات القومية العصرية .

والسوداني أنى ذهب في مشارق الأرض أو مغاربها ، يعتر بسودانيته ، ويشعر بأنه سفير بلاده في غربته . فتراه يبعد نفسه عن كل ما يمكن أن يؤذي سمعة بلاده ، ويأنف من الخوض في مسائل تؤثر على صورة وطنه الممتازة التي يضعها إخوانه وأبناء قومه لبلاده . وقد يعادي القريب أو البعيد في وطنه ، ولكنه إذا خرج في غربه فإنه ينسى العداوة والشحناء ، ويجعلهما وراء ظهره لا تؤثران عليه ، ولا يتأثر بهما . وتراه أخا لعدوة وحميما لغريمه ، ومدافعا عن خصمه ، ولا يقول عنه إلا الخير ، ويقف بجانبه كالبيان المتماسك ، وهو لا يغتاب زميله أو عدوه ولا يناقسه في اغترابه ، بل ويتبنى مشكلاته ، ويسعى إلى حلها .

حدث أن توفي أحد السودانيين في ليفربول في إنجلترا قبل ثلاثين عاما أو تزيد ولم يكن هناك في تلك المدينة الإنجليزية سوداني سواه . وعلمت بعض الأسر اليمينية التي كانت تعيش هناك بوفاة ذلك السوداني المسلم فاتصلوا بالجالية السودانية في كاردف يسألونهم أن يسمحوا لهم بدفنه . فردت

عليهم الجالية السودانية شاكرة لهم اهتمامهم، ومقدرة لهم شهادتهم . ولكنهم ذكروا لها بأنهم يؤثرون الحضور بأنفسهم لغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وإقامة المآتم عليه فأخذوا أسرهم النصف إنجليزية واستأجروا حافلات ثلاثا من كاردف وانطلقوا حتى ليفربول حيث أقاموا المآتم وترجموا على المتوفى وعادوا أدراجهم دون أن يعرفوا من هو .

وللمآتم في السودان اعتبار كبير وهم يطرقونها للتعزية كواجب منهم إذ أن الإخوان لا يعرفون إلا في الشدائد ، ومن ثم فهم يحسنون العزاء والمواساة ولا يتأخرون عنها مطلقا ، بل إنهم يتركون أعمالهم الرسمية في سبيل أدائها . وإذاعة امدرمان تذكر بشكل عادي في نشراتها الوفيات التي تصلها والمقبرة التي سيدفن فيها المتوفى وزمن الدفن ومكان إقامة المآتم . والنشرة التي تنتهي في الساعة السابعة إلا ربعا من صباح كل يوم هي من أهم ما يستمع إليه السودانيون . وقد يبدو هذا مبالغة ، ولكنه الواقع وإلا لما حرصت الحكومة على إذاعة مثل هذه الأنباء إن لم تكن شعورا عاما بين السودانيين قاطبة .

ومن بين عادات السودانيين التي يتميزون بها أنهم باستثناء بعض الأحياء في المدن الكبرى كالخرطوم وبورسودان فإنك كثيرا ما تجد الناس في شهر رمضان المبارك ، وقد افترشوا الأبسطه البسيطة أو البروش في الطريق ووضعوا مأكلهم ومشربهم لإفطار رمضان ، وجلسوا جماعات جماعات يترقبون أذان المغرب ، حتى إذا مر بهم عابر سبيل مهما كانت حيثيته استضافوه وعزموا عليه أن يتناول معهم وجبة إفطار رمضان . وما زالت هذه العادة متبعة في بعض الأحياء في المدن ، ولكنها كثيرة منتشرة في القرى .

والسوداني صبور على ما ينتابه ، يواجه قسوة الحياة بشجاعة . وقد ذكروا أن الخليفة عبد الله التعايشي الذي حكم السودان في ثورة المهديّة بين سنة ١٨٨٥ - ١٨٩٨ م ألقى القبض على أحد أعيان البلاد وكبل يديه ورجليه بالحديد ، ثم أخذ يهدده ويتوعده . فلم يدعن السجين . فأمر بأن يؤخذ ليشنق . فوجد أنه لا يستطيع أن يمشي والحديد في رجليه . فأمر بأن يترك حتى الغد . ولكن هذا السجين قال إن لم يكن هناك حداد لفك هذه القيود فلا بأس من بتر القدمين لإخراج القيود . فجرد من قدميه ، وعلق في المشنقه دون أن تطرف له عين ، أو تظهر على وجهه مشاعر الألم . وليس هو نسيج وحده في تحمل الألم ولكنه يمثل فقط أبناء بلده .

ومن بين العادات التي كانت منتشرة حتى منتصف هذا القرن في السودان بين القبائل العربية عادة البطان . هذه العادة التي بدأت تختفي من المدن تماما ، وتبقى على قلبه في القرى . ولا أعرف من أين جاءت هذه العادة أهي عربية محضة ، أم خليط من العادات السودانية الأصلية والعربية . ولعل القارئ العربي بالمملكة العربية السعودية أو غيرها من البلاد العربية الأخرى يدلنا عما إذا كانت هذه العادة معروفة في المنطقة التي يعيش فيها .

والبطان هو المبارزة بالسوط " الكرباج " ، وموسمها عادة في الأعراس حيث يتوافد أبناء القرية أو القبيلة إلى حفل العرس حيث يجتمع الرجال في ناحية والنساء في ناحية أخرى . ويلبس العريس ملابس الفرح . وبالإضافة إلى اتشاحه بالسيف في يساره ، يمسك السوط بيمينه ، ويجيء إليه الشبان زرافات ووحداً ويقولون له : "أبشر " ، فيهز يده بالسوط أو بالسيف ، ثم قد يتحمس أحد الشبان وهو يستمع إلى الزغاريد والدفوف ويستنشق عبير البخور والطيب والخضاب بالحناء ، فيهتز طرباً ، ويمتلىء

حماسا ، ثم يقول للعريس " أبشر أنا أخو البنات عَشْرَ " . وهذا يعنى أنه على استعداد للدفاع عن بنات العشيرة كما يدافع الأخ عن أخواته ثم يطلب . من العريس أن يجلده بالسوط عشر جلدات . ولا مناص للعريس من ذلك . ويخلع المبشر طالب الجلد ثوبه من ظهره ، ويعريه ، ويقف مرتكزا على قدميه فى الأرض ، وقد تمنطق بثوبه حتى وسطه ، وينهال عليه العريس ضربا بالسوط واحدة بعد الأخرى بأشد ما يستطيع ، وهو وسط الدفوف التى تعزف ، والزغاريد التى تهلل يقف مسمرا فى مكانه لا تطرف له عين ، ولا تهتز له خلجة ، أو تتحرك عضله ، وكأنه نصب من مرمر . وتعلو الزغاريد ، وصيحات الفرح ، ويقفز قفزات كلها نشوة وطرب لانه برهن لكل الحاضرين والحاضرات على أنه قادر على الدفاع عن حريم العشيره بقوة صبره واحتماله للألم . ولكن ليلة العريس لا تنتهى بذلك ، إذ يدخل الشباب إلى حلبة العرضة ، ويعرضون بسيوفهم وعصيهم ، ويقفزون قفزات كلها خفة ومرونة ثم يتحدى كل منهم الآخر ، ويقف اثنان منهم فى وسط حلقة العرضة ، ويتمنطقون بأربابهم ، حتى الوسط ، تاركين صدورهم وظهورهم عارية ، ثم يمسك أحدهما السوط ويجلد منافسه أمام القوم بقوة ومهارة حتى يمزق جلده ويتناثر الدم من جراحه ، وهذا متكىء على الأرض بساقيه ، شامخ الرأس ، مرفوع أنف ، مستيقظ العينين ، حتى إذا أخذ حظه من السياط من واحد إلى ما شاء الإثنان من عدد ، أمسك السوط بدوره وعرض فى وسط الحلبة ، ثم التفت إلى منافسه . وبين زغرودة النسوة ، وحماس أغانيهن ، رد الصاع صاعين إلى من جلده أول مرة أملا فى أن يجعل عضلاته تحتلج ، أو جفنه يطرف ، أو جسمه يهتز . ولكن لا يحدث شىء من هذا القبيل . ويمضى الجميع فى هذه التحديات الفردية التى

يطلق عليها فى السودان " البطان " حتى تنتهى حفلة الزفاف قرب الفجر ،
فيمضى كل إلى مأواه مثخن الجراح ، قرير العين ، فرح الفؤاد بما ناله أمام
الجميع من حسن السمعة ، وقوة البأس والاحتمال ، وكثرة السياط التى
مزقت إهاب ظهره حتى لم يبق له جزء ينام عليه .

ويصحو الجميع من نومهم فى اليوم التالى وظهورهم قد أهدبتها جراح
السياط ، ولكن ليس منهم من يشكو أو يتألم . ويتحدثون عن التمثيلية التى
قاموا بها فى الليلة الماضية بنفوس راضية . هذه القرى التى يتألق أبناؤها فى
تحمل الأمل هى نفس القرى المضيافة التى ينزل إليها الغرب فاستقبله أى رجل
من القرية وهو داخل إليها على زاملته أو جملة أو حماره ، فيمسك الرجل
بزمام الدابة ويقودها إلى منزلة (دار) أعدت فى وسط القرية لينزل فيها
الغريب . وما أن استقر به المقام فى السرير (الذى يسمونه عنقريب) فى
تلك الخلوة أى دار الضيافة حتى يأخذ الرجل المضيف الدابة ليسقيها ، ثم
يحضر معها علفها من أعواد القصب وبعض الذرة . فتزاح الزاملة أو الحمار
من عناء السفر . وفى نفس الوقت يتوافد رجال القرية على الضيف : كل
منهم يحمل فى يده إناء فيه الآبريه أو الحلومر ، وكلاهما شراب من الذرة
بدلا من الشرابات يذهب الظمأ ، وبيل الريق ، فيشرب الضيف من
(كورة) زبيده أى وعاء من هذا وذاك ، وهم يلحون عليه فى أن يقطع
ظمأه ويروي غلته ، فيجد أن بين يديه الكثير والكثير . وما يزال يشرب حتى
يرى أنهم أخذوا يناولونه الشاي إما باللبن الحليب أو بدونه . وتهبط فى
الخلوة عشرات من (البراريد) الآباريق وفيها الشاي ليشرّب منها
الغريب . وما إن يحين وقت الطعام حتى ينساب إلى مقر الضيف هؤلاء الكرام
وفى أيديهم صواني (تباسي) قد حملت بأنواع الغداء المختلفة التى يعرفونها

أما إذا راوه أفنديا أي من موظفي الحكومة فقد يحاولون طهي ما يشتهية أهل الحضر ، ويجلسون معه ليأكل من زاد هذا وذاك. وتستمر هذه الحالة حتى يرحل عنهم ليستقبلوا غيره وغيره لا يسألونه من أين جاء ولا إلى أين ذاهب . فهذه حالهم في استقبال الطارق الغريب .

والسوداني ودود أوف . وإذا نزل أحدهم ضيفا على قريبه أو زميله أو صديقه تبناه الجميع ، ودعاه الجميع إلى دورهم ، وأولوا له الولائم ، وذبحوا الذبائح ، وفتحوا له بيوتهم وصدورهم ، فهم لا ينتقرون ولكن يدعون الجفلى ، ولا يعدون الولائم المقفولة من شيم أبناء العرب .

وأهم ما يميز مبانينهم سواء أكانت في المدن أو القرى أن صاحب الدار إذا أراد أن يبني داره فإن أول ما يخطط له ديوان الضيوف ، فيبني الغرفة أو الحجرتين ، ومعها دورة المياه قبل أن يبني حجرة أهله وعياله ، فهو يرى أن الدار التي لا تتقبل الضيوف والطراق ليست بدار يجدر اقتناؤها . وقد كنت ضيفا على الكثيرين في دورهم تلك ، وأنا بينهم غريب جئت من البحر الأحمر ، فكنت أرى في داخل السودان ما عقد لساني دهشة ، وخيل إلي على الرغم من كرم أهل شرق السودان ، أن بقية السودان لا يمكن أن يجد الإنسان فيه حاقما لأنهم كلهم حاتم ، بل إن حاقما يتضاءل كرمه إذا قيس بكرم هؤلاء ، ولو كان بينهم لما اشتهر هو وحده بذلك دون غيره من ملايين العرب .

وعندما كثرت السيارات بعد الحرب العالمية الثانية في السودان ، أصبح كثير من الناس يتنقل بها خاصة في أرجاء أرض الجزيرة ، وكان سكان الخرطوم والمدن الأخرى يتندرون ويقولون بأن عرب الجزيرة الآن بعد أن

كانوا يقدمون العلف لمطايا الضيوف ، أصبحوا يأخذون سياراتهم إلى محطات البنزين ويملاون خزاناتها هناك ، وما أجدرهم بعمل ذلك .

ذكر المقرئ في خطه عن صعيد مصر " وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها كان يمر من القاهرة إلى أسوان فلا يحتاج إلى نفقة ، بل يجد بكل بلدة وناحية عدة دور للضيافة إذا دخل دارا منها أحضر لدابته علفها وجى له بما يليق به من الأكل ونحوه . " وآل أمره الآن إلى أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال . ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقي في أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة ست وسبعين وسبعمئة ، وتزايد تلاميذه في أيام الظاهر بقوق جور الولاية ولم يزل في إدبار إلى أن كانت سنة ست وثمانئة وشرقت مصر بقصور مد النيل ، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف ، حتى أنه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان ، ومات من مدينة أسيوط أحد عشر ألف إنسان ممن غسل وكفن ، ومن مدينة هو (ههيا) خمسة عشر ألف إنسان ، وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم " ١١

وسنرى في معرض حديثنا في هذا السفر كيف اضطرت القبائل العربية التي كانت تسكن صعيد مصر إلى الهجرة عن مصر العليا والنزوح إلى السودان بسبب قسوة الولاية من الممالك والأترار على العنصر العربي حتى أخرجت الكثير من القبائل العربية الرحل من صعيد مصر فنزحوا إلى أراضي السودان الخصبة ، ومراعيه الفسيحة ، ووجدوا فيها خير وطن لهم . وما أشبه هذا الذي وصفه المقرئ عن القبائل العربية في صعيد مصر ، بما ذكرناه

عن عرب أرض الجزيرة في السودان ، بل وبقية القرى السودانية جمعاء حيث حل فيها العرب ، وامتزجوا بسكانها الأصليين الذين لم يكونوا أقل كرما ممن وفد عليهم من قبائل عربية تحددت معهم. هذه الشيم تتجلى فى الشعب السودانى قاطبة ، وتراها جلية إذا سأل سائل أو غريب عن مكان شخص فإنهم لا يدخرون وسعا فى إيصاله إلى ما يريد سواء أكان موقعا أو شخصا حتى يتأكدوا من وصوله بالسلامة .

وإذا استدعى الأمر فإنهم يستضيفونه حتى يعثر على ما يريد . إن السودانى يتبنى قضيتك خاصة إذا كنت غريبا ، ويؤثر على نفسه لأنك أجنبى عن البلاد ، ويسعى جاهدا ليجعل لك الحياة سهلة رخيصة مهما كلفه ذلك من جهد ونفقة ، فهو يعرف أن السودان برحابة أراضيه ، وخصوبة تربته ، وحرارة طقسه ، كفيل باستضافة جميع من فى الأرض. وطبيعة الأرض هذه هى التى جعلته سمح المخالطة والود . وهناك صفة أخرى تفتن دائما مع الجود ألا وهى بذل النفس ، ومن هنا كان التعبير العربى عن بذل النفس والنفيس . وقد سبق أن ذكر فى معرض هذا الحديث شيئا عن الشجاعة السودانية ولكن هذا شرف قد يدعيه كل جنس . ولذلك فإنه من الأفضل أن يستشهد الكاتب بغيره من الكتاب لتصوير هذه الخصلة فى السودانين . ولعل خير ما يمكن أن ينقل هنا ما قاله السير ونستون تشيرشل رئيس الوزراء البريطانى أيام الحرب العالمية الثانية^٢ والذى حضر المعركة الفاصلة بين القوات البريطانية الغازية للسودان عام ١٨٩٨ م حين قاد كتشتر الفيلق البريطانىة ومن ضمتهم إليها من محاربين لقتال السودانين فى معركة كررى فى تلك السنة التى انتهت بحصد المدافعين السودانين بالمدافع الرشاشة البريطانية

٩ كان مراسلا حربيا لحدى الصحف البريطانية

حتى أفنت زهرة رجال البلاد . يقول تشيرشل : " ليس من العادة أن تلتقي خياله قوية التسليح بمشاة يحسنون الثبات والحرب على أرجلهم ، وفي مثل هذه الحالات فإما أن يهرب المشاة وتلحق بهم الخيالة وتقطع أوصالهم أثناء هروبهم واما أن يحتفظ هؤلاء المشاة بهدوتهم ، ورباطة جاشهم ، ويقضوا على الخياله برصاصهم . أما في هذه اللحظة فقد ارتطم حائطان بعضهما ببعض ، وحمارب السودانيون برجوله وبسالة ، وحاولوا أن يعقروا جياد الخيالة الإنجليزي ، وأطلقوا بنادقهم ، وضغطوا على الزناد ، وبنادقهم ملتصقة بأجسام أعدائهم ، وقطعوا أجمة الخيل ، وكل ركاب ، وقذفوا برماحهم بمهارة عظيمة ، وجربوا كل أنواع القتال وفنونه بهدوء وسكينة تعرفان عن الرجال الذين زبنتهم الحروب ، واعتادوا على منازل الخيالة وقتالهم . وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لعبوا بصوارمهم الحادة الثقيلة التي غاصت في أعماق جسوم أعدائهم . وكانت المعركة التي اشتبك فيها الجانبان بالأيدي والسلاح الأبيض على الجانب الآخر من المنحدر قد استمرت لمدة دقيقة ، ثم أخذت جياد الخيالة الإنجليزي في السير بخطوات واسعة أولا ، ثم ازدادت الخطوات اتساعا وانسحبت فرقة الرماحة البريطانية من وسط المحاربين السودانيين . وفي خلال دقيقتين من الصدام ، كان كل رجل بريطاني حي تخلص من قبضة السودانيين يكاد لا يصدق بنجاحه .

وكان كل الذين سقطوا في المعركة قد تناولتهم السيوف السودانية حتى أجهزت عليهم . ولكن لم تحدث أية محاولة للتمثيل بالجثث التي تناثرت في أرض المعركة " .

كانت بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر أقوى الدول الأوروبية عبر البحار ، وكانت تلتهم البلاد في القارات الأخرى واحدة بعد الأخرى .

وجاء دور البلاد السودانية بعد مصر في نهاية ذلك القرن ، وفي هذه المعركة التي سبقت هذه السطور . والتحم البريطانيون في عدة معارك مع سكان شرق السودان خاصة ، وبقية سكان وادي النيل . وكعادة السودانيين في مثلهم المعروف " الموت مع الجماعة عرس " فإنهم كانوا يستميتون في كل معركة يدخلونها . ودخلوا مع الجيش البريطاني في معركة انتهت بخسائر فادحة بين البريطانيين بالرغم من كثرتهم ، وقوة أسلحتهم وعتادهم . وكان الجيش البريطاني يحارب دائما في تشكيل عسكري عرف بالمربع البريطاني ، إذ كان الجيش ينتشر في شكل مربع ثم يطلق النيران من جميع أسلحته على مهاجميه حتى يقضي عليهم قبل أن يدخلوا أو يلتحموا برجال المربع . وفي تاريخ إمبراطوريتهم الطويل ، هزموا كل البلاد التي التحمت معهم في معارك دفاعية عن الأوطان ، وتغلبوا عليها دون أن يصيبهم كَلْم ، أو يراق لهم دم ، حتى التحموا بالخرابين السودانيين ، ن فكان لهم معهم موقف آخر خلده شاعرهم الانجليزي رايدر كبلنج المعروف بشاعر الامبراطورية فأعطى المحارب السوداني حقه من الشجاعة والبسالة والباع الطويل في القتال ، والجسارة التي لا حدود لها .

قال كبلنج في قصيدته " المحارب ذي الشعر الكث " ، ونقتطف منها هذه الأبيات . " لقد التحمنا في معارك كثيرة ضد العديد من الرجال عبر البحار . وكانوا يتفاوتون في شجاعتهم ، قوية أحيانا ، ضعيفة أحيانا أخرى . والتحمنا مع البائين والزولو وأهل بورما ، غير أن السوداني ذا الشعر الأشعث كان أروع الجميع . لم نستطع أن ننال منه شيئا . كان يقبع بين الأشجار ، ثم يثب على فرساننا ، ويلعب بهم كما يلعب القط بالفأر . لهذا فإنني أقدم لهذا المحارب السوداني هذه القصيدة إهداء له لشجاعته . كان البوير والبورميون

والزولو لا يساوون قطرة إذا قيسوا باخارب السوداني ذي الشعر الكث .
ليست لديه شهادات من الأكاديميات الحربية ، وليست له ميداليات على صدره ، ولكننا نشهد له بالمهارة التي أظهرها في استعمال سيفه الطويل . إن هجوم اخارب السوداني في يوم واحد من أيام سعده ، لكفيل يجعل الجندي البريطاني مكتفيا بذلك اللقاء مدة عام . لذلك فإليك هذا الإهداء أيها السوداني ذو الشعر الكث ، لأنك حطمت المربع .

إنه يعمل سيفه في رؤوسنا قبل أن نتبه . إنه رمال محرقة ، وزنجبيل حار عندما يكون حيا . إنه قطعة من المطاط المهووس ، إنه الشيء الوحيد الذي لا يعطي مثقال ذرة من الاهتمام لفرقة المشاة البريطانيين . إنه هو الذي حطم المربع البريطاني) .

هكذا وصف الشاعر البريطاني كبلنج ذلك اخارب السوداني الذي التقى به في عدة معارك بالأرض السودانية ، واعترف له بالشجاعة والجسارة والإقدام .

ولعل من الإنصاف أن نقف وقفة قصيرة على ما يقوله بعض المؤرخين السودانيين في تحليل شخصية الجندي السوداني ، إذ أن محمد علي باشا عندما كان واليا على مصر قرر فتح السودان لعدة أسباب من بينها " إمداد جيشه برجال السودان ، وكان للسودانيين يومئذ شهرة وصيت بعيد بالبأس والشجاعة . والجندي السوداني هو أشجع من سكن إفريقيا ، وكفاه فخرا أنه هو الذي فتح السودان سنة ١٨٩٨ م . أما دعوى الخصوم بأن الجيش المصري والإنجليزي هما اللذان فتحا السودان فباطلة إذ لم يسترد البلاد من أهلها الشرعيين غير تلك الفيالق من السودانيين التي كان يقدمها اللورد

كتشنر وضباطه في الصف الأول من النار ، ثم المصريين ثم بعدهم الإنجليز ،
فأخذوا نار استقلالنا (١) .

هذا من ناحية تحليل الشخصية السودانية واطهار وجهها المشرق .
لكن هذه الشخصية كغيرها من الناس لها معايها ، وستترك هذه ليسردها
علينا من يتصل بهم ، ويعترف على نفوسهم عن قرب ، إذ أن هذه الأسطر
ستتحدث عن المحاسن أما المثالب فلها من يكتب عنها .^١